الفصل الأول:

زنزانة ببابين

حين يضيق الجدار، يتسع الماضي، وكل قفلٍ يفتح جهةً لا نريدها.

الاعتقال ليس بابًا إلى السجن فحسب، بل بوابة نحو الذاكرة. هناك، في ظلمة النظارة، تبدأ رحلة ياسر في مواجهة نفسه الأولى: ابنٌ قتل زوج أمه، وظنّ أنه قتل القدر.

اندلقت رأسه حتى كادت تلامس الأرض حين أفاق متوجّسًا، فمدّ يده إلى الحائط خلفه ليعدل من وضعية جسده قليلًا ويظفر بقليل من الراحة، وإن كان ذلك في ذاته ضربًا من المعجزة. كيف يمكن لراحةٍ أن تُنال وهو جالس على البلاط منذ ساعات، مقرفصًا، وقد التصق به جسده المرهق التصاقًا؟

كانت تلك المرة العاشرة التي يفيق فيها ليجد نفسه على الهيئة نفسها، مقرفصًا بلا حراك، كأنما صار جسده حارسًا لانتظاره الطويل. أدرك بيقينٍ الآن أن المكوث في غرفة النظارة ليس بالأمر الهيّن، فزمجر في سرّه ولعن نفسه ألف مرة على ما أوصلها إلى هذا المأزق. غير أن بقايا الحرقة التي تتقد في صدره ما زالت تنبض بوجيبها، وتدفعه دفعًا نحو التحدّي والصمود تحت أي ظرفٍ يختاره أولئك «الأوغاد.«

ما زال يتمنى أن تُتاح له فرصةٌ ثانية ليطحن وجوههم، أن يقذفهم بأقذع السباب إن استطاع، ولو كلّفه ذلك سيلًا آخر من الضربات والركلات كما فعلوا من قبل. فما عاد يبالي بالألم بقدر ما يهمّه أن يريهم أنّه ليس ذلك الشخص السهل الذي ظنّوه حين غافلوه عند باب المقهى، فاعتقلوه وجرجروه أمام المارة وبعض معارفه هناك، بحجّة مذكرة إحضار صادرة بحقه. لم يكن يعنيه ما يُقال عنه بقدر ما أحرقت قلبه تلك النظرات المشكّكة التي رمقه بها الواقفون، فالمفاجأة وحدها كانت كافية لتشعل نيران الغضب في داخله.

أراد أن يصرخ في وجوههم جميعًا: لستُ من تظنون! لم أُعتقل بتهمةٍ مشرفة أو بقضية وطنية كما قد يعتقدون. كلا، لقد طعنتُ زوج أمي وغرقتُ في دمه، حتى لم أعد أحصي عدد الطعنات التي اخترقت ذلك الجسد البدين. لم تكن طعناتٍ طائشة، بل مقصودة، دقيقة، تفيض غضبًا.

نعم، لقد طعن زوج أمه، ثم فرّ هاربًا. لم يكن ينوي تسليم نفسه للشرطة، رغم نصيحة أقرب الناس إلى قلبه، جدّه شرف. لكن الغضب كان قد أعمى بصيرته، ولم يرَ في ذبح ذلك اللعين ما يستحق الندم أو التوبة.

»لقد نال عقابه«، تمتم بها بينه وبين نفسه، وهو يتعمد قضاء معظم وقته خارج البيت، متنقلًا بين أماكن مختلفة طوال خمسة أيام. لم يكن بينها قاسم مشترك سوى أنه يعود كل ليلة إلى فراشه ليلًا فقط. فقد اعتاد التسلل إلى البيت مع منتصف الليل، إلى ذلك المسكن الذي آواه لأكثر من ست سنوات، ثم يفرّ منه عند الفجر.

في اليوم التالي للجريمة، جاءت إحدى سيارات الجيب التابعة للشرطة إلى البيت تحمل بلاغًا بضرورة حضوره الفوري إلى مركز الشرطة. علم حينها أن زوج أمه، «جلال الوقعة»، الذي تركه غارقًا في دمه في السوق، لم يمت، وإلا فكيف كانت الشرطة لتصل إليه بهذه السرعة؟

»يبدو أنّ ذلك اللعين قد نجا وقدّم بلاغًا«، قالها في نفسه وهو يفسّر الموقف. قرّر ألّا يسلّم نفسه. صحيح أنّ الفكرة أرعبته في البداية، إذ تَخيّل نفسه قاتلًا، لكنّ الذعر ما لبث أن تلاشى حين قضى يومه الأول في أحد مقاهي مدينة غزة، بعيدًا عن أي مكان قد يظنّ أحدهم وجوده فيه، حتى أعزّ أصدقائه، عزيز زهران.

تلقّى اتصالًا من جدّه، ثم من عمّته صباح، تلك المرأة التي ورثت عن أمّه الراحلة بعض حنانها. لكن لا صراخ الجدّ ولا بكاء العمّة أقنعاه بأن يعود ويسلّم نفسه. مضت خمسة أيام لا يعرف كيف انقضت ولا كيف يمكنه الخروج من الورطة التي ورّط نفسه فيها. انقلبت حياته رأسًا على عقب، وراح التوتر ينهش أفكاره ويقود أفعاله.

نام في البيت مرارًا وفرّ منه مع بزوغ الشمس. صرف معظم ماله قبل أن تفتك به الإرهاق والأعصاب المنهارة. ومع تضاؤل الحيلة، استبدّ به الحنين إلى مقهاه القديم عند مدخل المخيم، فقصده. لكنّ القدر لم يمهله أكثر من نصف ساعة حتى داهمه الإحساس بالخطر. نهض ليغادر، لكن رجال الشرطة كانوا قد طوّقوا المكان. اعتقلوه في وسط الشارع، على بُعد بضعة أمتار من بوابة المقهى.

حاول أن يقاوم الصاعقة التي نزلت عليه فجأة، غير مدركٍ أنّهم كانوا يتربّصون به منذ أيام. تعاملوا معه كفارٍّ متمرّد، فانهالت عليه الأيدي والأقدام: لكمات وركلات وصفعات، حتى سقط أرضًا بعرقلة متعمّدة من أحدهم. خدشت ركبتيه ومرفقيه، وسال دمه. لم يهدأ إلا بعد أن كبّلوه وساقوه إلى مركز الشرطة القريب، الذي لا يبعد أكثر من كيلومتر واحد جنوب المكان.

هناك، أضيفت إلى ملفّه تهمٌ متعددة: مقاومة أمر اعتقال، وإهانة الشعور الديني، إذ شهد بعضهم أنّه سبّ الذات الإلهية أكثر من مرة. فزاد ازدراء رجال الشرطة له حين وصل، وكلٌّ أراد أن ينال نصيبه من إهانته.

***

نُزِع منه كلُّ شيء قبل أن يُلقى في غرفة الاحتجاز. قضى دقائق متتابعة وهو يدور داخل المكان كالمسعور، يتلفّظ بكلماتٍ مبهمة، ممزوجةٍ بلعناتٍ سوقية، حتى خارت أنفاسه واندفع بالصراخ من أعماقه. لم تلبث صرخته أن ووجهت بصوتٍ آخر أكثر فظاظةً وأعلى:

»اسكُت يا حيوان! سكر دمّك قبل ما ندفنك هون«!

لم يعد يملك سوى أن يلوذ بالصمت والانتظار. اختلط عليه كلُّ شيء؛ إحساسٌ جارحٌ بالإهانة يتنازع داخله مع رغبةٍ عارمةٍ في تفريغ الغضب الذي صار كأنفاسه. شدّ أعصابه وزفر كالجواد في ساحة الحرب. ابتلع ريقه مراتٍ متتالية، وتاهت نظراته وهو يحاول أن يثبت بصره على أيّ شيءٍ أمامه، لكن دون جدوى.

وفجأة، بدأ يسمع طنينًا خافتًا يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى صوتٍ جميلٍ وبعيد، كأنّه يتسرّب من مكانٍ آخر. صاحبه ألمٌ فظيع يتسلّل إلى ذراعيه ثم إلى ظهره وسائر جسده. نبضاتٌ كهربائية صاعقةٌ اجتاحت أوصاله، تزداد شدّةً كلّما حاول المقاومة. ومع كلّ ومضةِ ألمٍ كان الصوت الغليظ في رأسه يزداد وضوحًا. استعاد وعيه ببطء، وعدّل جلسته وسط العتمة. ضوءٌ باهتٌ شقّ طريقه إلى الداخل من نافذةٍ صغيرةٍ تعلو الجدار، انعكاسٌ شاحبٌ لضوء النهار الآفل. تحسّس الأرض الباردة تحته، فارتعد؛ كانت كقطعة جليدٍ تتسلّق مؤخرته، كأنّها مبلّلة برطوبةٍ لزجةٍ مقزّزة. رأسه ثقيلٌ كصخرةٍ معلّقةٍ على عنقه. أدار عينيه حوله متفحّصًا ملامح الحجرة التي احتُجز فيها. كانت واسعةً نسبيًا قياسًا بغرفة سجن، خاليةً من أيّ أثاثٍ، تتدلّى من سقفها خيوط العتمة. نافذةٌ صغيرةٌ عند الأعلى محكمةٌ بقضبانٍ فولاذيةٍ متقاطعةٍ أحكمت حوله العزلة.

اقتادوه إليها شبه زاحفٍ على ركبتيه وصدره بعد أن وصلت سيارة الجيب إلى مركز الشرطة. هناك فقد أعصابه، فلطم ضابط التحقيق على وجهه ظنًّا منه أنه يدافع عن نفسه بعد أن تلقّى صفعةً مهينة. لم يفكر، لم يقدّر العواقب، فقط أراد أن يحفظ كرامته، لكنّه أدرك لاحقًا حجم حماقته حين وجد نفسه هدفًا لعقابٍ جماعيٍّ شرس. هرع كلّ من في القسم للمشاركة في «تأديبه». لكماتٌ وصفعاتٌ وركلاتٌ متتاليةٌ انهالت عليه كالمطر. حاول المقاومة، لكن هيهات أن يقاوم هذا الطوفان من الأجساد المدربة والأيادي الغليظة. سقط أرضًا، ثم ارتكب ما هو أحمق؛ عاد إلى سبِّ الذات الإلهية من جديد، ثم راح يسبّهم ويشتم آباءهم وأحزابهم، وكلّ ما يتّصل بهم.

نفدت طاقته، ولم يعد يرى نفسه في أعينهم سوى جرذٍ متمرّدٍ يحتاج إلى سحقٍ ليطهَّر من قذارته. هكذا فسّروا الأمر، وهكذا برّروا لأنفسهم أن يمسحوا أحذيتهم بكلّ معالم جسده، حتى غادروا الواحد تلو الآخر، وأغلقوا عليه بابًا ثقيلًا ارتجّت مفاصله كأنه بوّابة قلعةٍ حجريةٍ من زمنٍ أسطوريٍّ غابر.

في النهاية، سقط فريسةَ الإرهاق، فنام رغمًا عنه. أجّلوا التحقيق معه لليوم التالي، فغاص في دوامةٍ من النعاس المتقطّع والأنين المكبوت.

كان في حياته السابقة يقضي نهاره نائمًا، لا يفيق إلا مع العصر. عادةٌ بغيضةٌ كان صديقه عزيز وجدّه الحاج شرف يعيبانها عليه. سنتان متتاليتان وهو يعيش هذا النمط الكسول الذي أضاع عليه فرصًا كثيرةً للعمل وتحسين وضعه. كان يسخر منهما دومًا، مؤمنًا بقدرته على السهر لساعاتٍ طويلةٍ متى شاء، وربما يومًا كاملًا دون نوم. لكنّه الآن أدرك أنّ التقدير خانه؛ فمنذ خروجه صباحًا إلى مركز التموين، ثم زيارته بيت خاله ولقاؤه بأمّه، وصولًا إلى المواجهة القاتلة مع «جلال الوقعة» وما تلاها من جريمةٍ وفرار، كلّ شيءٍ اختلّ. لم تعد ساعات نومه منتظمة، ولا أعصابه متماسكة.

الآن، في هذه الحجرة الباردة، أحسّ بجسده الممزّق يئنّ تحت وطأة الرضوض. كلّ عضلةٍ فيه تصرخ ألَمًا، كأن الإشارات العصبية تستغيث من التعذيب المتواصل. لم يعد يدري أيسمح لنفسه بالصراخ أم يكتفي بالتأوّه في صمت. أدرك أخيرًا أنهم نجحوا في إذلاله، وأنه لم يكن يومًا قادرًا على مواجهة الشرّ المتأصّل في نفوسهم.

حين خرج آخر شرطيٍّ من الغرفة، رمقه باحتقارٍ وقال:

«شايف؟! هيك مصير اللي بعمل حاله نمرود وبيسبّ ربّه!»

ثم صفَق الباب بعنفٍ وتركه وحيدًا، يغلي بالغضب، يقسم في داخله أنه لو خرج يومًا، لعاد إليهم بأربع قنابل وكلاشينكوف وعشرة مخازن ذخيرة، ولن يترك منهم أحدًا حيًّا.

غمره حنقٌ لا يُحتمل، ممزوجٌ برغبةٍ في البكاء، لكنّه كان ينفر كلّما سمع وقع أحذية الحارس الثقيلة خلف الباب. رفع رأسه بجهدٍ إلى الفتحة الصغيرة أعلى الباب محاولًا أن يبدو متماسكًا، خشية أن يراه ذلك الحارس ضعيفًا. دار ببصره في الأرجاء باحثًا عن كاميراتٍ مخفية، لكنه لم يجد شيئًا.

لم يعلم كم مضى من الوقت، لكنه أيقن أن العشاء انتهى منذ زمن. سمع أحدهم يقول لآخر:

«خلّيه يروح يتوضّى ويصلّي العِشا... يمكن ربنا يهديه!»

جاءه صوتٌ أجشّ يردّ باستهزاء:

«!اتّقِ الله يا زلمة! بدك اللي بيسبّ ربّه يعرف القبلة؟»

ثم عمّ المكان صمتٌ ثقيل، تقطّعه ضحكاتٌ مكتومةٌ تتردّد من الحجرات الأخرى في المبنى الحديث، الذي أُعيد بناؤه بعد أن دمّرته الحرب السابقة. كان المركز قائمًا في الطابق الأرضي من المنشأة الجديدة المخصّصة لأمن المحافظة.

تلاشى الإحساس بالزمن، وغرق في ضبابٍ من التعب والدوار. أغمض عينيه، وتصارع داخله شعوران متناقضان: العار من أن ينام مهزومًا، والرغبة في الاستسلام لجسده المتهالك. قاوم قدر ما استطاع، محاولًا أن يثبت لهم أنه أصلب مما يظنون، لكن الساعات الطويلة التي عاشها هاربًا كانت كفيلةً بامتصاص آخر ذرةٍ من قوّته.

خمسة أيامٍ كاملة قضاها مطاردًا، انتهت به إلى هذا القفص الحديديّ. تذكّر فجأةً صباح اليوم السابق، حين أمضى الليل غارقًا خلف شاشة الحاسوب، يتجوّل في عوالم الإنترنت وما تحمله من غواياتٍ ولذّاتٍ موهومة. كان يبحث عن نسيانٍ مؤقّت، فإذا به يجد نفسه في جحيمٍ دائم.

لم يبقَ أمامه الآن سوى أن يغرق في سباته، لعلّ النوم يمنحه مهربًا إلى عالمٍ آخر، غرائبيّ وعجيب، بعيدٍ عن ضوء الزنزانة الباهت ورائحة الحديد والدمّ.

***